شعر
الوقوف على الأطلال
من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث

— ٧ —

٢ — شعراء الغزل الحضري : عمر بن أبي ربيعة

ندرس هنا شعر الوقوف على الأطلال عند شعراء الغزل الحضريّ ، ونبحث في تطوره عندهم ، وهؤلاء الشعراء هم شعراء الغزل الذين نشؤوا في حواضر الحجاز في العصر الأموي .

واختصاراً للدرس والبحث ندرس هذا الموضوعَ عند شاعر واحد من هؤلاء الشعراء ، وهو زعيمهم وكبيرهم عمر بن أبي ربيعة .

وقد عاش عمرُ في مكةَ عيشةً راضية ناعمة مُترَفة ، واتخذ قول الشعر لعباً يتسلى به ، ويلهو في حياته السعيدة الخالية من هموم الدنيا وأثقالها التي تبهظ قلوب الناس . فكان شعرُه كلُّه لذلك غزَلاً ناعماً جميلاً فارّاً ، يفيض ببهجة الحياة وأفراحها .

وقد أكثر عمرُ من شعر الوقوف على الأطلال في غزله ، كما أكثر منه شعراء الغزل العذريّ سواء . وأشبههم عمرُ كذلك في وصف حالته النفسية ومشاعره الخاصة في هذا الشعر ، والدوران حولَ هذا المعنى خاصةً ، والإقلال من ذكر المعاني الأخرى التي عرفناها في شعر الوقوف على الأطلال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واتخذ من ذكر المنازل والديار وسيلة لوصف حبه ومحبوباته ، وسياقة أخباره وصور آماله التي تتردد في مخيلته الغنية . وكان بذلك متفقاً وشعراء الغزل العذري في طريقة شعر الوقوف على الأطلال ومعانيه .

ولكنَّ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ قد اختلف مع ذلك عن شعراء الغزل العذري بطبيعة هذا الشعر ، كما اختلف عنهم بطبيعة شعره في الغزل . فقد خرج هذا الشاعر بشعر الوقوف على الأطلال من جوّ الحزن والبكاء إلى جوّ الفرح والابتهاج . فلا نجد في شعره الحنينَ والذكرى الأليمةَ ، ولا نسمع فيه أنّاتِ المحرومين وبكاءَ المحزونين ، إنما نحسُّ فيه بالبهجة والطرَب ، ونسمع فيه ضحكاتِ السعادة ونغماتِ الفرح . وهذا شأنُ عمرَ ابنِ أبي ربيعة في شعره جميعاً . وهذه أبيات له في الوقوف على الأطلال (١) :

ألم تربع على الطللِ ومغنى الحي كالخِلَلِ
تعفي رسمه الأروا حُ من صَبَأ ومن شَمَلِ
وأنداءٌ تباكره وجَوْنٌ واكف السَّبَلِ
لهندٍ ، إن هنداً حبُّها قد كان من شُغُلي

وهذا شعر خفيف راقص ، غني بالموسيقى والنغم لخفة ألفاظه ، وسهولة تراكيبه ، وسرعة وزنه . والحقيقة أن عمرَ يغني في شعره في الوقوف على الأطلال ، ويفرح للحياة فيه . وهذا بالرغم من ذكره البكاءَ والدموع والشوق والفراق في أكثرِ الأحيان . وبكاؤه ودموعُه في هذا الشعر تشيع فيها البهجةُ والمرح ، ولا يلفُّها حنينُ الحيارَى وحرقة القلوب وآلامُ العاشقين المتيَّمين ، إذ لم يكن قلبه جريحاً ، ولم تكن نفسه حزينةً ، ولم تكن الحياة عنده إلاّ لهواً ولعباً .

(١) ديوان عمر بن أبي ربيعة ٤٠١ ـ ٤٠٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن طريقةَ عُمَرَ هذه في شعر الوقوف على الأطلال ، وهي طريقة الفرح والبكاء البهيج ، لم تستمرَّ بعده ، ولم يسلكها شاعرٌ غيرُه . فانقطعت لذلك من بعده .

٣ ــ سائر شعراء العصر الأموي غير شعراء الغزل :

إننا حين نبحث في أمر شعر الوقوف على الأطلال عند شعراء العصر الأموي من غير الغزليين ، ولا سيما عند الشعراء الثلاثة الكبار ، نجد أمراً جديداً هو أن هؤلاء الشعراء قد أهملوا شأن المنازل والديار ، بل كادوا يتخلَّون عن ذكرها والوقوف عليها في افتتاح قصائدهم ، وانصرفوا عنها أو كادوا ينصرفون إلى الغزل . فتعلقوا به وشرعوا يبدؤون قصائدهم في أغراض الشعر المختلفة بالغزل الصرفِ وحدَه دون ذكر المنازل والديار والوقوف عليها ، واتخاذِها وسيلةً إلى الغزل كما كان يفعل الجاهليون . وبذلك خرجوا على قواعد الطريقة القديمة في افتتاح القصائد . وتتمثل هذه الطريقةُ كما نعلم في افتتاح القصيدة بذكر الديار والوقوف عليها ، ثم الانتقالِ من ذلك إلى الغزل ، ثم الخلوص بعد ذلك إلى الغرض الأساسيّ في القصيدة . وكذلك قد تخلّى شعراء العصر الأمويّ عن الغزل ذاتِه في بعض قصائدهم الكبرى ، وهجموا على أغراضهم فيها مباشرةً ، ولا سيما في الفخر والهجاء . وكأنَّ الغزلَ كان يضعف من ثورة نفوسهم الغاضبة ، ويُخمد جمرة غُلَوائها وكبريائها ، فكانوا يُضربون عنه أحياناً ، كما كان يفعل الفرزدق مثلاً . وقد كان الجاهليون يُعَدُّون عن شعر الوقوف على الأطلال أو الغزل نفسه في بعض قصائدهم . ولكن ذلك كان يَحدُث في القصائد القصيرة المعدودة الأبيات ، ولم يكد يقع في القصائد الكبرى كالمعلَّقات مثلاً . وأكثرُ المعلقات بدأها أصحابها بشعر الوقوف على الأطلال .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ونستثني جريراً من شعراء العصر الأموي ، فقد كان يُكثِر من ذكر المنازل والديار والوقوف عليها في أول قصائده .

وأشهر شعراء هذا العصر هم الشعراء الثلاثة الكبار ، الأخطل والفرزدق وجرير . وسنرى أمرَ شعر الوقوف على الأطلال عند هؤلاء الثلاثة الكبار ، ونرى مدى التطور الذي طرأ عليه . وجريرٌ أكثرهم شعراً في هذا المعنى كما ذكرنا .

* * *

أما الأخطل فشعره في الوقوف على الأطلال قليل بالقياس إلى وَفْرة شعره وسَعةِ ديوانه . وهو مشغول في شعره عامَّةً بالغزل والخمر عن المنازل والديار . يبدو لنا في هذا الشعر رجلاً سكّيراً مغرماً بالخمر ، يحبها حبّاً جمّاً ، ويذكرها كثيراً ، ويصفها ويصف زقاقها وشاربيها وصفَ محب لها ، معجَب بها ، خبير بشؤونها . والصفة الغالبة على شعره في الوقوف على الأطلال ، على قِلة هذا الشعر ، هي اهتمامُه بالسحاب والمطر الذي يُعفي الديار . وقد وصفها وصفاً مطوّلاً ، وأتانا خلال ذلك بصورٍ جميلة شيّقة للعواصف وثوران الطبيعة ، كما قلنا آنفاً حين دراستنا لعوامل تخريب الديار .

وأما الفرزدقُ فشعره في الوقوف على الأطلال قليل جداً بالقياس إلى غزارة شعره وسَعةِ ديوانه . وهو مشغول في شعره عن المنازل والديار مثلَ صاحبه الأخطل . ولكنَّ شغلَه لم يكن بالخمر ، وإنما كان بالفخر . وهجاءُ الفرزدق خاصَّةً يكاد يكون كلُّه فخراً واستعلاء . وليس لشعره في الوقوف على الأطلال ميزةٌ خاصة به .

وكلا الشاعرين ، الأخطل والفرزدق ، يحذُوان حذوَ شعراءِ الجاهلية في هذا الشعر . فيقفان على الديار ، ويصفان آثارها وبقاياها ، ويذكران اندثارَها ، ويصفان الوحوشَ التي تألفها بعد رحيل أهلها ، كما كان يفعل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجاهليون سواءً . وهذا دون اهتمام كبير بالحالة النفسية . على أن الجاهليين كانوا أكثرَ أصالةً ، وأصدقَ شعوراً .

* * *

أما جريرٌ فقد كان الشاعرَ الأوحدَ الذي تعلّق بالمنازل والديار بين شعراء العصر الأموي . وقد أشبه شعراءَ عصرِه في الإكثار من الغزل وبدء قصائده الكبرى به وبالشكوى على طريقة شعراء الغزل العُذريّ البداة في الغزَل والشكوى ، وبتذكر عهد الشباب وبكاء أيامه المولّية والنعي على المَشيب والإزراء به ، على طريقته الخاصّة . ولكنه ، إلى ذلك ، ظلّ منعلقاً بالمنازل والديار ، وقال في الوقوف بها شعراً كثيراً ، حتى فاق في ذلك كلَّ من أتى قبله ومن أتى بعده من الشعراء ، سوى أبي عُبادةَ البحتريّ في المصر العباسيّ .

وجرير ، على إكثاره من شعر الوقوف على الأطلال ، لا يطيل هذا الشعرَ في القصيدة الواحدة ، بل سرعان ما يتركه إلى الغزل أو غيره من الأغراض ، وهو يهلهل هذا الشعرَ هلهلةً جميلة ، ويبتعد به عن الطريقة الجاهلية ، ويسير جنبَ جنبَ مع شعراء الغزل العذري في وصف مشاعره ، والاهتمام بالحالات النفسية حين الوقوف على الأطلال . وهو مثلهم يحب المنازل والديار حباً جماً . فما ينفك لذلك يُحَيّيها ويناديها ويناجيها ، ويدعو لها بالسُّقيا والبُقيا في كل قصيدة من قصائده . وتسري في شعر جرير في الوقوف على الأطلال رقةٌ وعذوبة ، نحسّها أيضاً في غزله ومراثيه وشعره في بكاء أيام الشباب جميعاً .

على أننا نجد جريراً يذهب في شعر الوقوف على الأطلال مذهباً جديداً لم يأخذ به غيرُه ممن سبقوه . وذلك نزعته إلى تقديم الغزَل على هذا الشعر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في بعض الأحيان . وقد نرى آثاراً من هذا المذهب عند شعراء الجاهلية وشعراء الغَزَل ، ولكننا لا نرى ذلك عندهم واضحاً بيّناً في صورة نزعة ظاهرة ، تتكرر مرةً بعد مرة في شعر شاعر واحد بعينه . وقد ذهب جرير هذا المذهب في قصيدته الشهيرة التي بكى فيها زوجته أمَّ حزرة خالدة ، واستهلها بهذا البيت المشهور :

لولا الحياءُ لعادني استعبارُ ولزرتُ قبرَكِ والحبيبُ يزارُ (١)

فهو ، بعد بكائه أمَّ حزرة بكاءً طويلاً جميلاً على هذه الوتيرة ، يعود إلى دارها بالنميرة ، فيذكرها ويبكيها ويصف رَبعها وآثارها في قوله :

يا نظرةً لكَ يومَ هاجت عبرةً من أمِّ حزرة بالنميرة دارُ (٢)
تحيي الروامسُ ربعَها ، فتُجِدُّه بعد البِلى ، وتُميتُه الأمطار
وكأن منزلةً لها بجلاجلٍ وحيُ الزَّبور تُجِدُّه الأحبار

وقد سار جرير على هذه الطريقة في قصائد كثيرة من شعره . منها القصيدة التي مطلعها :

قد قرَّبَ الحيُّ إذ هاجوا لإصعادِ بُزُلاً مُخَيَّسةً أرمامَ أقيادِ (٣)

ومنها القصيدة التي مطلعها :

بانَ الخليطُ برامتَينِ فودَّعوا أوَ كلَّما رفعوا لبينٍ تجزعُ (٤)

ومنها القصيدة التي مطلعها :

ودِّعْ أمامةَ ، حانَ منكَ رحيلُ إنَّ الوَداع إلى الحبيب قليلُ (٥)

---

(١) ديوان جرير ١٩٩ .
(٢) ديوان جرير ٢٠١ .
(٣) ديوان جرير ١٥٢ .
(٤) ديوان جرير ٣٤٠ .
(٥) ديوان جرير ٤٧٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهذه القصائد جميعاً وغيرُها يبدؤها جرير بالغزَل ، ثم ينتقل منه إلى شعر الوقوف على الأطلال ، ويمزجه بالغزل مزجاً . وهذا مذهب جديد لجرير ابتدعه ، وسار عليه في كثير من قصائده كما قلنا .

وقد يفتنّ جرير في مذهبه الجديد هذا ، فيراوح بين الغزل وشعر الوقوف على الأطلال حالاً بعد حال في القصيدة الواحدة عينِها . فقصيدته الفائية التي يمدح بها يزيدَ بنَ عبد الملك يبدؤها بالرحيل ، والرحيلُ من معاني الغزل ، فيقول : (١)

انظر خليلِي بأعلى ثرمداءَ ضحىً ... والعيس جائلةٌ أغراضُها خنفُ
أستقبل الحي بطن السر ، أم عسفوا ... فالقلب فيهم رهين أينما انصرفوا

. . . . . .

ثم يترك الظاعنين وشأنَهم ، وكأنهم قد أمعنوا في السير ، فامتدّ بهم المَدَى ، وغابوا عن عينيه ، ويعودُ إلى الديار ، وكأنه يسلي بها همَّه ، ويعزّي قلبه عن الظاعنين ، فيقول (٢) :

ياحبذا الخَرْجُ بين الدام فالأدمى ... فالرمث من بُرْقة الروحان فالغرفُ
ألمم على الربع بالترباع غيَّره ... ضرب الأهاضيب والنَّسّاجة العصف
كأنه بعد تَحْنانِ الرياح به ... رَقٌّ تَبَيَّنُ فيه اللامُ والألف

ثم يبدو له ، فيُعرض عن الديار ليأخذَ بالغزل . ولكنه لا يلبث حتى يراجعَه الحنين إلى المنازل ، فيعود إلى ذكرها مرة أخرى ملوماً حائراً يائساً ، ويقول (٣) :

---

(١) ديوان جرير ٣٨٥ .
(٢) ديوان جرير ٣٨٦ .
(٣) ديوان جرير ٣٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال العواذل : هل تنهاك تجربـــة أما ترى الشيبَ والأخدانَ قد دلفوا؟
أما تُلِمُّ على ربع بأسْنُمةٍ إلا لعينيكَ جارٍ غَرْبُه يكفُ ؟
يا أيها الربع ، قد طالت صبابتنا حتى مللنا ، وأمسى الناس قد عزفوا

ولكن جريراً لا يفتنُّ هذا الافتتان ، ولا يعمـد إلى هذه المراوحة بين شعر الغزل وبين شعر الوقوف على الأطـــلال في قصيدة أخرى غير هذه القصيدة .

والنتيجة أن جريراً قد حاول أن يمزج شعر الوقوف على الأطلال بالغزل . وهذا مذهب جديد لجرير ابتدعه لنفسه ، وسار عليه في كثير من قصائده . ويُعَدّ مذهب جرير هذا خطوةً جديدة في تطور شعر الوقوف على الأطلال . وكان شعراء الغَزَل قد خَطَوا الخُطوةَ الأولى في هذا السبيل حين اهتموا بمشاعرهم وأحوالهم النفسية خاصةً ، وغَلَّبوها على المعاني الأخرى في هذا الشعر . وقد جاراهم جريرٌ في ذلك ، ثم جاء بمذهبه الجديد في محاولةِ مزج شعرِ الوقوف على الأطلال بشعر الغزَل كما قلنا .

الدكتور عزة حسن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net